الجامعة المستنصرية

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

توظيف الجنس في الرواية العربية الحديثة في ضـــوء النقد الثقافي

أطروحة قدّمها إلى
مجلس كلية الآداب- الجامعة المستنصرية
(حيدر عبد كاظم سلطان الجبوري)
وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
أ.م.د. عصام عسل حسن العتابي

١٤٣٤هـ ٢٠١٣م

المقدمة

كان الجنس ولازال العمود الفقري للحياة ، والإنسانية والأساس المتين للبناء الإجتماعي ، وعن طريقه تتم الدورة البشرية تناسلها وبقاءها ودوامها ، فالجنس ليس نزوة فحسب بل غريزة ثواب ،وعقاب وناموس طبيعي مثلما هو ليس بهفوة أو خطيئة ،إذا ما تمَّ بالعرف المرسوم له ، وعليه فلم يعد الخوض في غماره سراً مادام الإنسان يسعى لتسخير قوى الطبيعة ،وعقله لصالحه كي يصلح بناء مجتمعه ونفسه ، فالجنس أداة كشف وتفسير ، بما فيه من خبايا تكشفه وغايات سامية تفسح الطريق نحو حياة أفضل وحقيقة لا يمكن التغافل عنها في فهم مشكلات النوع الإنساني مهما آمن البعض بأنَّ تناول قضيته بالبحث ،والدرس جريمة لا تغتفر أو أنّ إخفاء مشكلاته وإحاطتها بنحو من التكتم والسرية ،والغموض هي من أساسيات الفكر الديني والإجتماعي المتوارث المحافظ الناظر إلى الجنس على أنه مسكوت عنه لا يجب البحث فيه مادام أساساً للخطيئة ،والرذيلة والذنب الهاتك للعرف والمقدّس حتى يصبح التداخل في هذه الموضوعة أو محاولة البحث فيها شعوراً بالخوف والوجل نتيجة الإحساس العارم بالصدام المباشر مع العرف الإجتماعي والسير في الأرض الحرام التي من أراد أن يدخلها فيجب عليه أن يضع أولاً التساؤلات والإستفهامات وعلامات التعجب والإستهزاء واللوم والتوبيخ أحياناً وكأنما البحث في أمر الجنس هو تابو مقدس مع العلم أنَّ الحقيقة الجنسية هي حقيقة واقعة في صلب الدين وجوهره لأنّ الدين مع الحقيقة والحق مادامت تتمثل في أولوية البحث والإهتمام الكبير بمشاكل الجنس والكشف عنها بعيداً عن سرية البحث وغموض التناول ، فالغريزة الجنسية هي من أقوى الغرائز وأبعدها أثراً في حياة الإنسان مهما كانت درجة وعيه وثقافته ومستوى تعلمه ، ولمّا كانت هذه الغريزة تحاط بقيود وتقاليد وأوضاع اجتماعية خاصة كانت عرضة للكبت بسبب ما ينتاب الإنسان من صراعات عقلية ونفسية وكثيراً ما يدفع هـــذا الكبت إلى الإفصاح عن

نفسه كما يقول فرويد في كتابه (الذات والغرائز) ،ص٢٥ وما بعدها : بطرق غير مستقيمة ومتخفية وكأنّ الكبت والخفاء هنا أصبح نوعاً من المقاومة الموجهة نحو القوة التي سببته وعملت على استمراره ، فهو أشبه بقانون الفعل ورد الفعل الموجه نحو المؤسسة ومن أجل ذلك تسلك في طريق مقاومتها التستر والتخفي الذي يعمل البحث في موضوعة الجنس على إجلائه وكشفه وإظهاره بعد أن يزيح النقاب عن القوة التي يعمل الجنس على مقاومتها ،أو محاولة التماهي عنها ،والتخفي خوفاً من مساءلة المؤسسة ومواجهتها مادام الشعور واللاشعور هما في آخر الأمر شعاع الضوء الوحيد الذي ينفذ منه قبس البحث إلى ظلام الإبداع وسيكولوجيته .

وربَّ سائل يسأل : هل في موضوعة الجنس ما يستحق الدراسة والبحث أو يوضع تحت طائلة المقاربات النقدية والتشريح ؟ وهل هنالك ما هو أبعد من وظيفته البيولوجية المعتادة التي يأتي ذكرها عارضاً أو مقصوداً في أغلب ما نقرأ من روايات تجد فيه فعلاً حياتياً ملازماً لأيّ فعل بشري آخر ؟ ولماذا نقحم الجنس في مقاربات النقد الثقافي لا غيره ؟ أو ليس للجنس جوانب جمالية يمكن الإفادة منها حين ندرس رواية ما ؟ أم أنَّ له دوراً أبعد من ذلك لا يمكن الوصول إليه إلاّ من خلال أداة لها فعل التحليل والكشف للوصول إلى المضمر الثقافي المستهلك وأنساقه الشعورية ، ما يسمح في قراءة النصوص وبنائها (أنساقها) ويجعل منها ذاتاً قادرة على توسيع رؤية القارئ وأخذه بعيداً عن التحليل الثابت للوقائع والمعتاد من التحليل والتفسير بما يسمح ثقافياً على النظر للموضوع بإرهاصاته مابين الإستهلاك والخضوع للآخر أو المواجهة والصدام العنيف المكتنه في الرغبات والبناء الفسلجي والعصبي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول : إنَّ الجنس إثبات للذات كما سنرى لاحقاً ، وهو هامش يحاول البروز علــى سطح الواقــــــع ،وإشارة لحياة جديــدة تنبــذ

المتخلف والراكد تأسيساً لحركة اجتماعية قائمة على إلغاء عوامل القهر والحرمان والإعتراف بالآخر والثورة على السلطة التي تكتم على الأشياء والنفوس مما يمهد لأخذ مكان واسع في الرواية العربية والأدب بصيغته الثقافية ، وأنّه بقدر ما يكون حالة غريزية بديهية عند الإنسان ينظر إليها على قدر مستوى الإشباع ، إلاّ أنَّ ذلك لا يلغي كونه وسيلة للعبور من أفلاك الملل والركود المادي المتكرر للطبيعة الإنسانية الثابتة وقيود وعيها ، وأنَّ هناك أنساقاً ثقافية للجنس مرتبطة بالميتافيزيقيا بحيث نستطيع القول معها : إنَّ الجنس مضمر إنساني داخلي يمكن تسميته بجنس اللاوعي يحاول المطالبة دائماً بتغيير الواقع من خلال عقد المقارنات الداخلية بين الحاضر المتشكل بعناصر الخمول الإجتماعي كالموت والسأم والإحباط ووسائل الإتصال الجديدة بالآخرين أو بالنفس ذاتها.

ومن هذا المنطلق يبرز الجنس بوصفه خطاباً جماهيرياً شعبياً فاعلاً ومؤثراً يعمل فعل المؤسسة كونه اكتنز بالطاقات المجازية والترميز ويتحرك ضمن أنساق عميقة وخطرة رغم عدم عدِّه مؤسساتياً بل أنّه في حالة تعارض مع المؤسسة التقليدية يعمل على التحرر من قيدها الى صفة أخرى ثقافية مؤرخة لنصوص لها فعلها الثقافي التأريخي في وعي الأمة الثقافي مادام النسق الثقافي العام يفعل فعله كنوع من المؤسسات ذات القاعدة الإجتماعية.

إنَّ توظيف الجنس اصطلاحاً وإنْ كان يعمل تحت الوعي وإرادته الملتزمة بفعل معين لدلالة واعية فإنه في الوقت ذاته يكون معبراً عن أعباء مؤسساتية ثقافية تسكن خلف اللاّوعي عند المبدع ومن هنا فالفعل الثقافي المضاد هو أيضاً فعل اللاوعي إذا ماسلمنا أنَّ جزءاً من تعريف الثقافة يعود إلى مافي الوعي الجمعي للفرد مـــن مؤثرات ميثولوجية أو وقائع سياسية أو اجتماعيــة

تكون مجتمعة في تكوين الخطاب الثقافي ، ومادامت الثقافة ذاتها تعمل عمل مؤلف آخر يصاحب المؤلف المعلن وتعمل في صياغة نصه بصورة المشاركة الفعلية المؤثرة العاملة في أنساقه المضمرة ، ومن هذا المنطلق وهذا الإتجاه سعى الروائي العربي الى اتخاذ الجنس مادة ثقافية استهلاكية – واقع حياتي معيش بحمولاته الثقافية بين الفاعل والمفعول- لها حضورها الفاعل والمؤثر في محاولة منه للتعبير عن آلية جديدة تسمح له بالتغيير والخروج عن النظم المعتادة التي أصبحت قوالب جامدة فارغة في محاولة منه لجعل الجنس فكرة وأداة عن طريق إثارة الإنتباه إليها وتوجيه الفكر نحوها بعيداً عن الضغوط والكتم الإجتماعي والديني وغير ذلك ومن بعد ذلك سيرشدنا هذا الإنتباه إلى إزاحة النقاب عن الأسباب التي دفعت الإنسان –العربي خاصة- إلى اتخاذ الجنس سلوكاً مقاوماً أو ردّة فعل أو خضوع نتيجة عوامل القهر السياسي والإقتصادي والإجتماعي ، وأنَّ هذه العملية اللاّشعورية التي تبناها الروائي العربي هي بالذات مرتكز عملية النقد الثقافي ومقارباته بما يسهم وبشكل مؤثر واضح في دراستها بصورة معمّقة مستفيضة كونها لم تعد تزويقاً لفظياً ،أو مهارة شكلية ،أو تصنعاً فكرياً يراد منه اللهو والتسلية بقدر ما أصبحت عامل وعي كبير ،ومنبر خطاب مهم يشارك بقوة في عملية الإصلاح الثقافي والاجتماعي ، وهذا أعطاها –أي الرواية العربية- القدرة على اتخاذ مديات أوسع في تعاملها مع مستجدات الواقع والوجود الثقافي ، مادام هذا الوجود قد تجذر في خطابات اجتماعية وأجناس أدبية غير الشعر وهذا ما يقتضي نقداً ثقافياً يكشف عن الأنساق ويعرّيها ، فللرواية أنساق حالها حال الشعر كونها مثّلت واقعاً وصورت مجتمعاً له فعله الثقافي والثقافي المضاد الذي عملت هي ذاتها على نسخه وتقويضه عبر مضمرات اجتماعية تسعى لتهديمها من خلال النفاذ إلى الظواهر الضاغطة واستشفاف جذورها في باطن التربة الإجتماعية وتعميق الوعي بها لتشحذ طاقة الرفض

والغضب أو الثورة أحياناً على القروح التي تنهش في الجسد الإجتماعي ، وفق آلية نقض الجديد للقديم القائم ومؤسساته ، وعليه فان بدايات هذا الجديد لابد أن تكون بدايات متخفية متسترة ، فما كان علامة ثقافية قارّة وبارزة هو في حقيقة ظهوره وبداياته نسق ثقافي مضمر يعمل بصمت ويأكل وينهش في الجدار القائم والموجود في حينه ، إنّه أشبه بالعلاقة القائمة بين الوعي الفعلي القائم والوعي الممكن ، لأنه يعبر عن (ديالكتيك) واضح وفلسفة جدلية بين السكون والحراك لامناص منها ، ومن هنا كان الربط بين كل عمل أدبي – والرواية جزء من ذلك- والنقد الثقافي الذي هو في حقيقته إظهار وكشف للداخل المضمر أو الرفض المتستر للمؤسسة والبنية القائمة ومحاولة الدفع إلى الإمام عن طريق الوصول إلى المناطق البعيدة في النص ومحاولة تحليلها ومعرفة مقاصدها الواعية واللاّواعية ، وعند هذه تحديداً تلتقي هذه الدراسة الموضوعة لوظيفة الجنس في الرواية العربية الحديثة في ضوء منهج النقد الثقافي كونها ثلاث علامات ثقافية وكشف دائم في ضوء المستهلك وعلاقة متجددة بين الماضي والحاضر ، فكل جديد خارج عن النمطية والمعتاد في حينه سيصبح نمطياً وتقليدياً مع مرور الوقت مادام واجب المثقف والأديب عزل النمطي والمتوارث داخل الإعتبارات والأعراف المستهلكة وبناء واقع ثقافي معاصر يعيش فيه أفراده – وأبطال الرواية من بعضهم- في رموز وأحلام العقل اللاّواعي والباطن بما يشكل أساس القادم الجديد الذي يستشف من ثنايا أنساق النص الأدبي والمضمون- بنيّة الأدلجة - وهو جزء مهم من هذه الدراسة الذي تم بثه في خبايا النص كنوع من الكشف المسبق أو الدعوة إلى رؤية الظواهر الإجتماعية وهي واقعة في لبّ سلوكياته وهذا يقع في صميم عمل النقد الثقافي فضلاً عن المرتبط بالشعبي والمستهلك الجماهيري بعيداً عن وظيفة الجمال المرتبطة بنخبة النص ومؤسساته المتحكمة في توجهات خطابـــه الذي ابتعدت

عنه الرواية وعن كل ماله علاقة بالفني والجمالي السردي وجعلت الزمن الروائي مفتوحاً ، فلم تخص زمناً دون آخر أو فترة دون أخـــرى إذ كـــان

همّها البحـث والتقصي عن دور الجنس في الرواية العربية الحديثة منذ بواكيرها الأولى إلى يومنا هذا ، وهي في ذلك لا تدّعي الإلمام بها جميعاً بقدر ما اعتمدت نماذج عربية من أقطار وأزمان مختلفة في محاولة لكشف المضمر النصّي للجنس وأسبابه الثقافية في ضوء التاريخ والمنتج الثقافي وأسبابه ونتائجه التي يرى فيها الباحث بفكره المتواضع أنّه استطاع أن يصل إلى نتائج وأساسيات جعلها في صميم البحث وتبويبه التي تمثلت بالتقسيم الآتي :-